المحاضرة رقم 04: بناء الموضوع عند الرضيع

تمهيد:

 يعتبر البناء المعرفي للموضوع خلال الأشهر الأولى من حياة الرضيع القاعدة الأساسية لكل البناءات المعرفية اللاحقة و التي من أهمها ادراك العدد (المعالجة الكمية للمواضيع)، القدرة على التصنيف (المعالجة النوعية للمواضيع) و التفكير (وضع الفرضيات و الاحتمالات على المواضيع الحقيقية و الخيالية).

1. اكتساب ديمومة الموضوع عند الرضيع la permanence de l’objet:

 اهتم "بياجيه" دائما بمعرفة كيف و متى يقوم الرضيع بالوعي بوجود الأشياء و المواضيع كما هي؟، بمعنى كأشياء دائمة الوجود، أساسية و خارجة عن الأنا. قام "بياجيه" بتحفيز سلوكات مرتبطة بموضوع مختفي لابنه "laurent piaget" و تمثل هذا الموضوع في دمية صوفية (nounours). اكتشف بياجيه أن البحث عن الموضوع المختفي (و هو دليل على ديمومته) لا يظهر إلا في عمر 8 أشهر بحيث يصبح الطفل قادرا على التحرك للبحث عن دميته المختفية وراء كرسي مثلا و أن هذا التحرك تتخلله بعض الأخطاء في ايجاد الدمية، فعندما يتم اخفاء الدمية مثلا عبر موقعين مختلفين لا يعي الرضيع هذا التنقل المستمر و يظن أن الموقع الأول الذي وجد فيه دميته سيتم ايجادها فيه في كل مرة. تمثلت تجربة بياجيه فيمايلي: وضع "بياجيه" طفله أمام وسادتين (وسادة أ و وسادة ب) و بعدها قام باخفاء الدمية الصوفية و أمام ناظري الطفل وراء الوسادة "أ"، لم يستطع الطفل ايجاد دميته إلا ببلوغ ال 8 أشهر و بعد تكرار هذه العملية عدة مرات (أ، أ، أ...)، قام المجرب باخفاء الدمية وراء الوسادة "ب"، لكن الطفل استمر بالبحث عنها وراء "أ" و لم يتمكن من البحث عنها و ايجادها وراء "ب" إلا ببلوغه 12 شهرا و هذا ما سماه بياجيه بخطأ التموقع erreur de localisation. يعتبر خطا التموقع حسبه دليل على وجود عجز في ادراك ديمومة الموضوع، بما أنه لم يستطع ادراك أن الموضوع لا يزال موجود عبر انتقاله من موقع لآخر.

 تم اخضاع تجربة بياجيه هذه للعديد من الاختبارات و التأويلات العلمية من طرف الكثير من الباحثين الذين تسائلوا عن المعنى الحقيق لخطأ التموقع عند الرضيع من جهة و شككوا في قدرة الرضيع على اكتساب ديمومة الموضوع قبل 12 شهرا و منهم من نعتها ب"الخطأ السلبي" من طرف المجرب. قامت Adele Diamond في 1980 باعطاء تفسير آخر لخطأ التموقع بالاعتماد على المقاربة العصبية المعرفية، فحسبها فان هذا الخطأ من 8 الى 12 شهرا راجع الى خطأ في كف الحركة المبرمجة سابقا اتجاه الوسادة "أ" و هذا الخطأ ناتج عن عدم النضج الكافي للفص الدماغي القبل جبهي عند الرضيع. تم اثبات فرضية Diamond من طرف الكثير من الباحثين حول دور المساحات القشرية الجبهية في حل تجربة بياجيه و عليه فان نجاح الرضيع في هذه التجربة لا يكون عبر معرفة ديمومة الموضوع و إنما في كف السلوك الحركي الغير مناسب، كما أن هذه القدرة تلعب دورا أساسيا في علاقاتنا مع المواضيع في مختلف المجالات الحياتية و عبر مراحل العمر كلها. (من أجل رؤية التجربة الخاصة بخطأ التموقع انطر في youtube فيديو بعنوان: Piaget- the A Not B Error Sensorimotor- Stage)

2- اكتساب الديمومة القبلية للموضوع:

 أثبتت Renée Baillageon بأن الرضيع يكتسب ديمومة الموضوع بداية من سن 4-5 أشهر و ذلك عن طريق تجربة سمتها "العنصر المستحيل" و أساس هذه التجربة هو ملاحقة ردات فعل الرضيع (كالدهشة و إطالة النظر) خلال وضعيات مستحيلة (التي لا تحترم قوانين الواقع) و تمت تجربتها عبر وضع الرضيع أمام حاجز من الخشب و وراءه يوجد مسار تمر عبره سيارة خشبية صغيرة، التي يراها الرضيع تمر أمام من اليسار الى اليمين تعبر وراء الحاجز و بعد تكرار العملية عدة مرات يقوم المجرب و أمام مرأى الرضيع بوضع حاجز وراء اللوح الذي من المفروض أنه يمنع مرور السيارة، لكن في الحقيقة يقوم المجرب بازالته أثناء مرورها و هذا ما يثير دهشة الرضيع من عدم توقعه لمرورها لأن من المفروض أن الحاجز سيقوم بمنع مرورها و يكون هذا في عمر 4-5 أشهر عكس ما قاله بياجيه. أثبتت Baillageon و غيرها من خلال الكثير من التجارب وجود خصائص نمو معرفي لم يتطرق اليها بياجيه و هي أن هذا النمو يتم عبر وجود و في نفس الوقت لقدرات أولية (أكتساب الموضوع في 4-5 أشهر) و أخطاء متأخرة (الكف الحركي) و هذا ما يجعل مسار نموه إلتوائي و ليس خطي تركمي مثلما اعتقد بياجيه. (أنظر في youtube فيديو: Object Concept VOE Ramp Study Baillargeon)

3- الادراكات الفيزيائية عند الرضيع:

 بعد تجاربها حول اكتساب الموضوع قامت Baillargeon بدراسة كيفية تطور المفاهيم الفيزيائية عند الرضيع: ما هو سن و ماهي سيرورة تعلمها عنده؟ قامت بعدة تجارب أثبتت من خلالها أن الرضيع عندما يتعلم بعض الأشياء مثل دعائم الاشياء أو تغطيتها أو الروابط فيما بينها، يبدأ أولا بصياغة مفهوم أولي مرتكز على التفريق الأولي الثنائي (la distinction primitive binaire)، فيما بعد و عبر الخبرة يطور تدريجيا مفهوم ثابت يستطيعون من خلاله القيام بتأويلات و تنبؤات أكثر دقة. قامت Baillargeon بتجربة بحيث وضعت أمام الرضع من 3 الى 12 شهرا، علبة و تحتها دعامة، لكن العلبة كانت مثبتة بشكل آخر من غير الدعامة و الرضيع يحاول تقييم عن طريق رؤيته اذا ما كانت العلبة ستبقى ثابتة أو لا، ففي عمر 3 أشهر يظهر على الرضيع أنه لديه تفريق أولي ثنائي بحيث أنه يتساءل اذا ما كانت العلبة ستبقى ثابتة أو لا، في عمر 5 أشهر يبدأ في فهم مصطلح التواصل بين العلبة و الدعامة، فهو يتساءل اذا ما كانت العلبة ستبقى ثابتة و هي فوق الدعامة و في عمر 6 أشهر يبدأ في فهم درجة التواصل بين العلبة و الدعامة بحيث يتساءل اذا ما كانت العلبة كلها موجودة فوق ادعامة حتى تبقى ثابتة، الى أن يبلغ سن 12 شهرا أين يتم فهم العلاقة التامة و التواصلية بين العلبة و الدعامة. (أنظر في youtube: Physical Reaning VOE Support Events Baillargeon)

 ان العامل الأساسي الذي يسمح للرضيع بادراك الروابط و العلاقات في الظاهرة الفيزيائية، حسب Baillargeon هو التعرض للنتائج الغير متوقعة من طرفه و إضافتها الى معارفة السابقة و هذا ما تسميه "انكار التوقعات le dementi des prévisions"، إضافة الى أنه عندما يبدأ الرضيع (غالبا في عمر 6 أشهر) بوضع الأشياء بنفسه فوق الدعائم كالطاولات مثلا حينها ستتدعم ادراكاته حول أن هذه الاشياء يمكن أن تبقى ثابتة أو لا.

خلاصة:

 انطلاقا من هذه الدراسات و التجارب التي رأيناها يمكن اعتبار أن الاخطاء النمائية هي كذلك ضرورية جدا مثلما النجاحات في عملي التعلم، لقد أفادنا بياجيه بمفهوم خطا التموقع و الذي تم تصحيح تفسيره من طرف Diamond بخطأ الكف الحركي و اكتشاف وجود ديمومة الموضوع القبلية من طرف Baillargeon، كما نعلم الآن أن التعلم الفيزيائي عند الرضيع مدعم بقدرات الاستدلال المعرفي و التي تسمح له بفهم الظواهر المحيطة به.